الندم بين كامو وسارتر

بقلم عبد الفتاح الديدي

مجمل مسرحية الذباب(*) :

وتصور مسرحية الذباب لجان بول سارتر نفس هذه اليقظة التي تصورها رواية الغريب لالبير كامو . ولكن تتم هذه اليقظة على طريقة سارتر في مسرحية الذباب . وجوبيتر هو الذي يبلغ قرار هذه اليقظة الى اورست بطل المسرحية . ويلفت جوبيتر نظر اورست الى ان الانسان ليس شيئا من الاشياء في العالم وانما هو وعي او شعور معزول داخل ذاته . ويقول له ما ينبيء عن خطورة افعاله في ايقاظ الناس من حوله. يقول لاورست ان ايقاظه للناس من حوله لا يؤدي الا الى منح الناس هدايا من العزلة والخجل . اذ لا يكاد المرء ينزع عن هؤلاء الناس اغطيتهم التي غطوهم جوبيتر بها حتى يروا وجودهم فجأة .. ذلك الوجود القبيح الممسوخ الذي لا مبرر له . »

ويراود سارتر نفس الغيظ الذي احس به ميرسو بطل رواية الغريب عند رؤية القسيس الذي جاءه من اجل الاعتراف الاخير قبل اعدامه . ان الطامة الكبرى التي رآها ميرسو في مشاهدة القسيس هي التي زادت الطين بلة في نظره. فافحش شيء في نظره هو ان يأتي القسيس لتدعيم موقف عابث . ويخطر نفس هذا الخاطر على ذهن سارتر حين يقول : « ما هي اهمية جوبيتر ؟ العدالة مسألة انسانية ولست بحاجة الى الله كي اتعلمها » .

في هذه المسرحية يبلغ اورست ابن اجاممنون وكليتمنيستر سن العشرين . ويصحبه مربيه ومعلمه في رحلة نحو مدينة ارجوس . وارجوس هي موطنه الاصلي الذي طرد منه في سن الثالثة . وقد طرد منها على اثر قتل اجيست عشيق كليتمنيستر لزوجها اجاممنون والد اورست . وفي اثينا احتضنه بعض الاثرياء وعلموه الحكمة وحرية الفكر . ويقف هذا الفتى البالغ سن العشرين من عمره وسيما حكيما جميلا غنيا شابا متحللا من عقائده وتقاليده ومتخليا عن كل ما يربطه بوطنه وقومه ودينه امام قصر ابيه دون ان يدري شيئا .

انه هنالك يتمتع بالحرية المجردة . وهو لم يشأ ان يفعل شيئا من اجل استخدام حريته استخداما موضوعيا . لقد الم بكل اطراف قصته تأنيب الضمير التي تخيم على مدينة ارجوس . ولكنه لم يتنبه الى ان دورا ينتظره هناك بين ربوعها . لا بد ان تكون المعطيات ذاتها مؤدية الى ظروف عملية تدفع الى الانشباك . لا بد من الارتباط بالقضية

(*) راجع العددين السابقين من « الاداب »

تفيض بالحياة اذ احسها
وكلما بمقلتي لمستها
وكيفما بمقلتي لمستها
لانني مطهرا اتيتها
لانني اردتها ، وعيتها
صنعتها
على فنائها منارة ونار

***

رأيت مخلب الزمان في جرابه يفور
ومارد الجبال نأره تفور
تضج في عروقه
النار خمرة وشهوة تمور
تغويه ان يظل ماردا
يصيح بالحياة ان تدور
سألتـــه
فشدني بكفتيه وانطلق
وحيث تنتشي الجذور والتراب في الشبق
وحيث يخصب الشرار
رأيتهم تفوح منهـــم روائح الزيوت والعرق
يصنعون معولا
يقال يحفر النهار
يغيب ثم عند طرقهم يثار
بمقلتي يخصب الشرار نار
عجبت كيف ما احترقت ما احترق
وكيف ما عشيت ومضته الالق
رأيت في البطون صرخة الصغار
وفي سنابل الحقـــول كيف ترقص البذار

***

رأيت ساحة ودار
والمارد العظيم في يديه بهجة البذار
تيجان حنطة وغار
مجدولة لهم لفتية صغار
يرفرفون حوله وحولها
تحكي لهم ملاحما عن الكبار
فيطبق الضيا وينطق النهار

***

قفزت شدني لصدره النهار
عانقته عانقت ضوءه
زرعت جذره بمقلتي
وعدت راقصا
وفي يدي مشعل ونار
ومعول ، معاول لاخوتي
اعيدهم من الفرار
فوارسا على المدار

الجامعة الاردنية ابراهيم برهوم

او بالوضع عن طريق الملابسات الملزمة وليس عن طريق المعرفة والاحاطة العابرة .

ويحدث التلاحم بين اورست وبين قضية بلده عن طريق ظهور الكترا . لا بد ان تتوافر الظروف المؤيدة للاشتباك والمولدة للرغبةفي اداء الدور المنوط بالمرء وبالميل الى الانتقام . ونجد في مسرحية سارتر عن الذباب نفس النسق الذي نجده في مسرحية الكترا من تأليف جان جيرودو . فهو لا يغير كثيرا من موضوع المسرحية المستقى من التراجيديا اليونانية القديمة . والكترا هي اخت اورست التي تتحدث اليه اول الامر دون ان تعرفه . وكان قد قرر الرحيل الى اسبارطة في نهاية المنظر الثاني من الفصل الاول . ولكنه لم يكد ينظر الى الكترا ويتحدث اليها حتى كان قد قرر مصيره في الانتقام والبقاء معاهلبلده.

واذا كان سارتر قد اختار اسم الذباب فذلك لان الفينيقيين كانوا يعبدون الها للذباب . وتصير هذه الحشرة هنا في مسرحية سارتر ذات طابع مقدس . فاله الذباب ها هنا هو جوبيتر اله الموت المسيطر على مدينة ارجوس وينشر الرعب والفزع بين اهلها . وقد نشأت الكترا في حياة مختلفة عن اخيها وفي وسط مغاير . لقد تربت في قصر زوج امها اجيست الذي قتل اباها واستولى على مكانه وقصره . وصارت الكترا خادمة لامها وعشيقها اي انها شربت روح التمرد والكراهية . وبقيت منذ خمسة عشر عاما في انتظار اخيها اورست الذي تقدم اليها مخاطبا باسم فيليب . ولم تكن تحيا الا على امل ان يعود اخوها فينتقم من امه وزوجها المذنبين منأجل شفاء مدينة ارجوس وخلاصها منشبح هذه الجريمة الذي يسيطر عليها . فبسبب هذه الجريمة تطن ملايينمن الذباب في جو مدينته منذ خمسة عشر عاما . وقد ارسل الالهة الذباب ليعيش هناك . ويمثل الذباب في المسرحية تأنيب الضمير .

ويسأل اورست جوبيتر : « ... هل يندم اجيست ؟ » فيجيبه جوبيتر قائلا : « اجيست يندم ؟ سيكون ذلك مدعاة لدهشتي . ولكن ماذا يهم . ان المدينة باكملها تندم من اجله . ولهذا الندم اهميتهحسب الوزن » وهكذا نرى ان القاتل يسيطر على المدينة ويحكمها بغير ادنى تأنيب للضمير . اما مملكته التي يحكمها فتقبع فوق هذا التأنيب الضميري الخاص بالناس الاخرين . انها تعاني من جراء اخطاء لم ترتكبها .

الندم والموضوعية :

حينما تتوالى الاحاسيس والمشاعر في خاطر المرء نجده في الحال يسعى الى خلق المشغوليات لنفسه بحيث يتلهى عن حياته الباطنية بالحركات الظاهرة او بالاشياء التي تخص انتباهه والتفاته . فيرفض المرء حياته الباطنة لانها تخلو عادة من الانضباط ومن التقيد بهدف معين ولا يمكنه التحكم في سياقها وتيارها النفسي والنتيجة هي ان يتحول بعضهم الى الصلاة وبعضهم الى قراءة الشعر واخرون الى الإنشغال بالعد والارقام .

وبهذه الحركة يتجه المرء عادة للبحث عن شيء ذي لون من المقاومة. ولا ينجح هذا الالتهاء المؤقت الا لدى بعض الناس من ذوي المستوى الشعوري المعين . ولكنه لا ينجح في الغالب . ورغم ذلك فانه يدفع بنا الى الفكر الحقيقي ويقودنا نحو الطريق الذي نضبط فيه افكارنا وهو الطريق الذي نتلمس فيه اشياء موضوعية . اي اننا نعلق لذلك فكرنا على الاشياء الموضوعية . ولا تتحرر العقول الناضجة الجادة الا امام الاشياء الموضوعية ... امام الارض الصلبة اذا همت بالبناء ...وامام بقايا النار اذا همت بتقدير المصائب والملمات .

وهذا هو ما حدث فعلا لميرسو بطل الغريب ولاورست بطلالذباب. لم يكن يلائمهما هذا الانسياق العاطفي والتحلل الشعوري ازاء المرئيات. وحدث لهما ما حدث في كل امثال هذه المواقف بحيث لا تقع العين اطلاقا الا على ما هو ثابت مؤكد مهما كانت درجة سوئه . فعندئذ تنتهي الاحلام ويشرع المرء في الارادة. وتصبح الحياة الباطنة سر تشكيل كل ما نشهده في الخارج . اذ ان الانسان لا يتحرر ولا يقوى الا امام الشيء الموضوعي . فتلكهيطبيعةالانسان الذي يتهيأ بالفعل وسط الاشياء .

ولكن الفعل الارادي ذاته لا يتحقق الشروع فيه الا اذا توفرت ملابسات الارادة التي تتطلب هذا الفعل الارادي . فقد كانت الفتنة نائمة كما يقول المثل ولعن الله من ايقظها . والحق انه لا بد من دوافع استجابة معينة لدى الشخصكي يقبل بنفسه على تحقيق ارادته في فعل ما . ويظل المدى شاسعا بين الطموح وبين الفعل الواقع لدى الشخص . وبدون تضييق هذه المسافة بعوامل اخرى تلتقي الارادة باشياء اخرى غير ما هو مقدر لها .

ويمكن ان ننظر مثلا في تأنيب الضمير وفي الندم فنجد انه لا يوجد اختلاف بينهما الا في درجة الايمان او الثقة المطلقة في العمل الجديد من حيث يصبحان قابلينُ للتحقق في التو ويصبحان كما يقول الان Alain متطهرين تماما من الخطيئة . اما تأنيب الضمير فهو اكثر شيوعا مما نظن . وهو لا يعدو ان يكون الفكرة في عدم امكان شيء حيال الموقف الان وفي المستقبل وفي اننا على هذا النحو واننا سنكون كذلك دائما . ورغم ذلك تبدو هذه الفكرة سخيفة ممجوجة بالنسبة الى اللاعب على الحبل والى اللاعب على الكمان والى الخطيب . فهؤلاء لا يكفون عن رفض هذه الفكرة . ويقولون فيما بينهم وبين انفسهم ان المران والاشتغال الطويل كفيل بمحو درجة اليأس من اتقان هذه العمليات . العمل والدأب الطويل علّى مباشرة المران العملي كفيلان ببعث الاعتقاد لدى المرء على عدم الوقوع في الخطأ .

وهكذا لا نكاد نغفر خطايانا كما يحصل بالفعل ولا نكاد ننساها الا اذا تملكتنا نزعة ارادية . لا بد ان نلقي بانفسنا الى نزوعنا الارادي كي نغفر لانفسنا ما سلف . وكي نلقي الارادة من جديد لا بد لنا من الصدام .. اي لا بد من ان تصادفنا مقاومة وصلابة في كل ما يحيط بنا . وعندما يحدث الصدام تحدث اليقظة. لان الانسياب العاطفي ينقطع حينما يرى المرء ان قدرته على غزو الشيء الموضوعي المتمثل في ملابساته غير وافية . وهذه القدرة تنشأ عن احساس بالندم لا سبيل الى الافلات منه رغم انه لا سبيل الىالافلات من مقدور الامور السارية .

الفعل والاخلاق :

لو وضعنا اي رجل محل اورست ... هل كان يتصرف اورست ؟ ولو وضعنا اي شخص في موضع ميرسو ؟ هل كان يتجاوب مع ملابساته على نحو ما تجاوبميرسو ؟ كما قلنا لابد ان تتوافر عناصر معينة لدى المرء كي يصبح التعارض بين الفعل وبين صلابة الملابسة المحيطة به قائما . لا يستشعر صلابة الاحداث سوى من كانت له في قلبه ومشاعره مجاوبات مع كل هذه العوامل .

فهل معنى ذلك ان الاخلاق تقتضي ظروفا معينة يتم فيها الفعل الاخلاقي اكثر من مجرد الاداء الحسن والشروع الفاضل ؟ نحن نعرف ان الذباب سجلت سنة ١٩٤٣ خلال الحرب العالمية الثانية كل ما ساقته اوضاع الاسر وحركات المقاومة الى مشاعر سارتر. ونحن نعرف ايضا ان الموقف الاخلاقي لم يكن قد اتضح تماما في ذهنه اثناء تلكالفترة. فهو لم يكن قد اكتشف بعد السببالذي يخطو به تفكيره خطوة الى الامام في هذا المجال . اذ كان سارتر يبحث مخلصا عن السبب الذي يدفع المرء الى ربط حريته بسياق معين . لم يكن سارتر قد اكتشف العامل الاساسي الذي يدفع المرء الى الالتزام والانشباك .

واخيرا في سنة ١٩٤٥ اي بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة استطاع سارتر ان يضع يده على عنصر التضامن البشري La Solidarité Humaine بوصفه اساس اشتباك الحرية في

مشروعا . اما قبل هذا الاكتشاف فقد كان هذا الاحساس لدى اورست مجرد التقاء مفاعلات واصطدام بالصلابة التي تفرضها الاشياء الموضوعة . فيقول اورست : « ولكن ماذا ؟ من اجل ان نحب وان نكره لا بد ان نهب انفسنا » . ويحس بغير قليل من الاسى لان الظروف اذا لم تكرهه على فعل شيء فلن يصبح له حق في شيء وتظل حريته جوفاء فارغة . انه لا يبدأ فعلا في المشاركة في الاوضاع المحيطة به الا اذا املت عليه هذه الاوضاع استخدام الحرية الكامنة في قلبه . وليست الاخلاق مجرد تصرف اهوج ازاء ما لا ينتمي الى عالمي وانما هي موقف يتخذه المرء حيال قضية تتجاوب مع عالمه .

وكما انتقل سارتر خلال الذباب من مفهوم الحرية الخاوية الى مفهوم الحرية المشبوكة بعد اليقظة من اثر الصلابة الخارجية في مقاومة الاشياء الموضوعة ... كذلك انتقل كامو من الحيوية الحسية الى الاخلاق فوق معبر من الطبيعية . فهناك فضائل طبيعية لدى الانسان. وهذه الفضائل مستقلة عن كل ثقافة او تعليم اجتماعي . انها تتمثل في الاقدام واحترام الضعفاء والاخلاص والخجل من الكذب ثم الاحساس بالاستقلال وتذوق الحرية . ولكن كيف يمكن ان يتوفر للانسان ما يبرر سلوكه حين يشبك نفسه في عمل سياسي ؟

لا تكاد هذه الفضائل تخضع لامتحان الظروف والمناسبات حتى يجد المرء ان كل شيء كأي شيء . ومن ثم ليس ما يستوجب ان يخضع المرء نفسه لمثل هذا الوجود الفاضل . ولذلك تنساب الاحداث بغير ان يحدث اي احتياج حقيقي لان يتوقف الانسان ويتمهل امام مشاهد الحياة وان يفحص ارتباطاته . كل شيء عبث ولا معنى له ولا ضرورة تمليها اوضاع الوجود المتوالية . ولا تلبث ميتافيزيقا العبث ومقتضياته الاخلاقية ان تشيع البرود في سلوك المرء . انه يعيش حياة لم تخلق من اجله ويتصرف في وجود لا ينتمي اليه . وتمضي الايام في رتابة السنون والحياة بغير اي مبرر . وفجأة تستشعر اصابع المرء صلابة الاحداث ازاء الاحساس بالفزع . ان الاشياء الموضوعية تقاوم ارادة الانسان ويستحيل استرجاع تسلسلها على هذا النحو او ذاك . وحينئذ يدب الندم في قلبه وتحدث اليقظة الحقيقية .

انه يتمنى ان يستعيد تجربة الاشياء حتى يفعل شيئا ذا معنى في هذا الوجود الذي اعطي الينا بلا معنى . ومع السؤال الذي يفترضه الانسان : لماذا ؟؟ لماذا ؟؟ تبزغ اليقظة . فلماذا احظى انا بهذه الحياة دون غيري ولماذا القى هذا المصير دون سواه ؟ وفي اعمق اعماق العبث ووراء جدرانه السميكة اكتشف النقلة الى الفلسفة والى الاخلاق . في اعماق اليأس والجزع يرى المرء بوضوح حقيقة وجوده باكملها ويبدأ الفعل . الندم هنا يبعث في الانسان حرارة الاندماج في الوقائع من اجل اعطاء معنى الى الوجود .

الحرية .. الحرية :

يقول جوبيتر في مسرحية الذباب موجها كلامه الى اورست :« من الذي خلقك ؟ فيقول له اورست : « انت .. ولكن لم يكن ينبغي ان تخلقني حرا » . فيقول جوبيتر : « ولكني اعطيتك الحرية لتخدمني ». فيجيبه اورشت : « هذا جائر . ولكني ارتددت الى نحرك ولا نملك ازاء ذلك شيئا .. لا انا ولا انت » .

والحرية ليست نجاح الفعل وهي ليست ايضا اخلاقيته . غير ان الحرية هي السلوك الانساني الضروري الكامن في اعماقه . يكفي ان يكون هناك انشباك في الاحداث وان يتوفر عنصر التمرد حتى تترعرع الحرية بين اجوائها المزهرة . ولا اختيار للانسان في الا يكون حرا . واذا كان قد تعلم الحرية فلانه تعلم الخطأ وتعلم ايضا الندم . ونشأ عن الندم انه رأى بوضوح انه لم تكن هناك ضرورة قط تبرر هذا السلوك دون ذاك . ولكي يفضل المرء سلوكا غير هذا السلوك او ذاك فعليه ان يرى سلسلة احداث الوجود وهي تدور من جديد امام ناظره . غير ان احداث الوجود لا تتراجع . ويضرب المرء بايديه فاذا به يواجه صلابة الوجود ومقاومة المناسبات . ولذلك يتخذ لنفسه موقفا . هذا الموقف هو الذي يجعله يستشعر الحرية المفروضة عليه . ويجب ان تنفجر الحرية الحقيقية في الفعل والتاريخ على السواء . فالحرية تفترض الالتزام . بل الالتزام هو الشرط الاساسي للسلوك الانساني الحر . واذا انضاف اليه التمرد بوصفه روح الحرية اكتمل للسلوك عنصراه الاساسيان . وحينئذ فقط تتدخل الاخلاق لترى واقعية السلوك ابتداء من احساس عميق بالندم .

وقتل اورست عشيق امه كما قتل امه . وذعرت اخته من المشهد فلم تعد تشاركه الرضا على ما فعل. واشترك اورست في حديث طويل معها ومع جوبيتر واصر على موقفه . وهو نفس الاصرار الذي تمسك به ميرسو في السجن امام القسيس . والتقت المشاعر في كلا المشهدين حينما صار كل منهما ذا اعتزاز وافتخار واعتداد بشخصه ووجوده حيال التقاليد والحياة . فذهبت الكترا تعكف على ندمها الاصيل . واتجه اورست الى شعبه فلم يأبه له احد . واختفى اورست الى الابد وذهب ميرسو ليلقى الاعدام على المقصلة .

كلاهما ذهب وبقي الفعل مصدر ايحاء مخيف بقدرة الانسان على تدبير الاحداث .الانسان حر .. حر لانه يجزع ويندم .. وحر لان له قدرة على تصور الوقائع وهي تتوالى على نحو اخر سوى مظهرها الذي تأدت فيه .

وسيتعلم الانسان كيف يسلك في الحياة على نمط اخلاقي سليم طالما كانت اعماقه مصدر ايحاء دائم بالصلابة في الوجود ... فهذه الصلابة هي سر الندم وهي سر السلوك البشري في صدامه مع موضوعية الاشياء ... لان خطيئته الحقيقية هي وجود الاخرين . وهذا هو ذنبه.

القاهرة — عبد الفتاح الديدي

سلسلة المسرحيات العالمية

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٢ ـ ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تأليف مرغريت دورا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٤ ـ لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندللو

ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٥ ـ تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر

ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق. ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت